﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [المؤمنون: 68 - 70]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

بعد أن بيَّنتِ الآياتُ السّابقةُ أحوالَ المُشركين في أنَّهم كانوا ينكِصون على أعقابهم عندما تُتلى عليهم آيات الله، ويستكبرونَ عنها، ويهذونَ بفُحش القول، ويُبالغون في الإعراض عنها، ناسب أنْ يذكر بعد ذلك هذه الآيات الّتي تُنكر عليهم موقفَهم تجاه القرآن الكريم، فأتتْ لتوقظهم من غفلتهم، بطريق الاستفهام الإنكاري، وبالإعراض عن مخاطبتهم، فهم ليسوا أهلًا له، إيذانًا وإعلامًا لهم بغضَب الله سبحانه عليهم.

بعدَ التّرهيبِ والتّهديدِ يأتي التّرغيبُ لإفهامِ الذّكيّ والبليدِ

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُنكِرُونَ﴾: (نكر) أصلٌ يَدُلُّ على خِلافِ المَعْرِفَةِ الّتي يَسْكُنُ إليها القَلْبُ، ونَكِرَ الشَّيءَ وأنكَرَهُ: لَمْ يَقْبَلْهُ قَلْبُهُ ولَمْ يَعترِفْ به لِسانُهُ[1]، وأصلُ الإنكار أن يَرِدَ على القَلْبِ ما لا يتصوَّره، وذلك ضَرْبٌ من الجَهْلِ، وقد يُستعمَلُ ذلك فيما يُنْكَرُ باللّسانِ، وسَبَبُ الإنْكارِ باللّسانِ هو الإنْكارُ بالقلبِ، لكن ربّما يُنْكِرُ اللّسانُ الشّيءَ وصورتُه في القلب حاصلةٌ، ويكون في ذلك كاذبًا، وتَنْكيرُ الشَّيْءِ من حيثُ المعنى جعْلُه بحيث لا يُعْرَفُ، وتعريفُه جعْلُه بحيث يُعْرَفُ[2]، والمقصودُ بالإنكار في الآية: نَفْيُ الشَّيْءِ ورَدُّهُ؛ أيْ: إنْكارُهُمْ صِفاتِ الرَّسول الكامِلة[3].

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نكر).
(2) الخليل، العين، والرّاغب، المُفردات: (نكر).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 69.

2) ﴿جِنَّةٌۚ﴾: (جنن): السَّتْرُ والتَّسَتُّرُ، فالجَنَّةُ ما يَصيرُ إليه المُسلمونَ في الآخرةِ، وهو ثَوابٌ مَستورٌ عنهم اليومَ[1]، والجِنُّ نوعٌ من العالم، سمّوا بذلك لاجتنانهم عَن الأبْصار[2]، والجِنَّةُ: الجُنونُ؛ وسُمّي الجُنونُ بذلك؛ لأنَّه يَستُرُ العقلَ ويُغطّيه، وهوَ الخَلَلُ العَقْليُّ الّذي يُصيبُ الإنسانَ[3]، وهو المُرادُ في الآية.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُنكِر الآياتُ على المشركين عدمَ تدبّرهم القرآن؛ فيَعقِلون مَعانيَه ويَعلَمونَ ما فيه، ويَعمَلون به ويتَّبِعونه، أمْ جاءَهم فيه ما لم يأْتِ آباءَهم الَّذين مِن قَبْلِهم، فأنكَروه وأعرَضوا عنه؟! أمْ لم يَعرِفِ المُشركونَ رَسولَهم مُحمَّدًا ﷺ، وأنَّه مِن أهلِ الصِّدقِ والأمانة، فيُنكِروا قَولَه؟! أمْ يَحتجّونَ في تَركِ الإيمانِ بدَعوى أنَّ بمُحَمَّدٍ ﷺ جُنونًا؟! ليس سَبَبُ رَفْضِهمُ الإيمانَ وتَوحيدَ الرَّحمنِ شيئًا مِمّا تقدَّمَ ذِكْرُه؛ بل السَّبَبُ الّذي دعاهم للتَّمسُّكِ بشِرْكِهم وكُفرِهم هو أنَّ مُحمَّدًا ﷺ قد جاءَهم بالحَقِّ، وأكثَرُهم يَكرَهونَ القَبولَ والإذعانَ لهذا الحَقِّ المُخالِفِ لأهوائِهم[4].

تَـدبُّـرُ الـكـلامِ يوصِل إلى فقهِ المقصودِ والنَّجاةِ عند المعبودِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

غرضُ الاستفهامِ وبلاغتُهُ:

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، غرضُه إنكارُ الواقع الّذي هم فيه من عدم التّدبُّر في تعاملهم مع آيات اللّه واستقباحُه[5]، وفيه دعوةٌ إلى التَّدبُّر وتركِ

الإنـكـارُ على المُعرضين وسيلةٌ للهدايةِ وإنقاذٌ من الغوايةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جن).
(2) ابن سِيدَه، المُحكَم: (جنن).
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 141، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 89.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 88، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 166، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 555.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 143.

الغفلة والإعراض، فإنَّ من شأنِ القرآن إقامةَ قيم الهداية واللُّطف مع المدعوّين، في أثناءِ التّقريع والتّعنيف، وهذه المُزاوجة بين المعاني لا تجد لها شبيهًا في كلام النّاس؛ لأنَّ مقصودَها قائمٌ على تحريك القلوب والعقول، للوصول إلى الحقِّ، ولا يستقيمُ ذلك إلّا بتقريعٍ مشوبٍ بالرّحمة، ورحمةٍ يلحقُها تأنيبٌ.

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ﴾ إمّا أن تكون عاطفةً، والمعطوفُ عليه محذوف مقدَّر بعد الهمزة، والتّقدير: (أعموا فلم يدَّبّروا القول)، أوْ (أفعلوا ما فعلوا فلم يدَّبَّروا القول)؛ أي: القرآنَ وما فيه من تراكيبَ معجزة، ومعانٍ باهرة، وحِكَم بليغة، ونحو هذا من الجمل الّتي يُمكن تقديرها في هذا المقام، وإما أنْ تكون (الفاء) مُتفرِّعةً على الكلام السّابق وهو قوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ إلى قوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾[1]، وهذا مذهبان مشهوران في تعيين المعطوفِ عليه.

الفاءُ عاطفةٌ على محذوفٍ بعد الهمزةِ أوْ متفرِّعةٌ على كلامٍ سابقٍ

نكتةُ استعمالِ (لم) دون (لا):

استعمَلَ النَّظمُ الكريم (لم) في النَّفي في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ﴾، ولم يستعمل (لا) فلم يَقُلْ: (أفلا يتدبَّرون)؛ وذلك لأنَّ المقصود إنكارُ ما حصل منهم في الماضي، وهو عدم تدبُّرهم القرآن، وهو ما يفتح لهم الأملَ في تغيير موقفهم من الإيمان باللّه وتدبُّر القرآن والانتفاع بما فيه، ولو استعمل (لا) لما تحقَّق هذا الغرض، وهو حثُّهم على مراجعة النَّفس، والإقلاعِ عمّا هم فيه من صدودٍ ونكوصٍ؛ فالمُراد وصفُ واقع المُشركين مع الدَّعوة للاعتبار ممّا هم فيه.

رغمَ كُفرِ المشركين وصدودِهم فإنَّ بابَ الأمل مفتوحٌ لمَن أراد الانتهاءَ عن غيِّه

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدَةِ التّدبُّر:

استُعملت مُفرَدَةُ (التّدبُّر) في الإنكار على المشركين؛ لأنَّ المعانيَ

الوصولُ إلى معاني القرآنِ الهاديةِ طريقُه التّدبُّر وترك الإدبارِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 87.

العميقة الهاديةَ إنَّما تظهر للمُتدبِّرين الّذين ينظرونَ ويتأمَّلون بعقولٍ صافيةٍ ونوايا مُتجرِّدة، ويكرِّرون النَّظر مرّةً بعدَ مرّةٍ، وقد سُمّي التّدبُّر تدبُّرًا؛ لأنَّه نظرٌ في أدبار الأمور وهي أواخرُها وعواقبُها، وتدبُّرُ الكلام أنْ ينظرَ في أوَّله وآخره، ثمَّ يعيدَ نظره مرَّةً بعد مرَّةٍ؛ ولهذا جاء على بناء (التّفعُّل)، كالتّجرُّع والتّفهُّم والتّبيُّن[1] الّذي يدلُّ على التّكلُّف وحصولِ الشّيء بكُلفةٍ ومشقّةٍ، وفي إيثار التَّعبيرِ بلفظة (التّدبُّر) تعريضٌ بعدم تدبُّر المُعرضين القرآنَ، ودعوتُهم إلى النَّظر في آياتِ الكتاب نظرةً مُتأنّيةً متأمّلةً، يحصلُ بها التّدبُّر الّذي تتبعُه الهداية والتّوفيق، وكان اختيارها دقيقًا للغاية، إذ هي مقابلةٌ لنكوصهم على أعقابهم وهو الإدبار عن سماع الآيات، فكان الإنكار دعوةً للتّدبُّر وحُسنُ التّفهُّم وليس للإدبار والرّفض والإنكار.

نكتة التَّعبيرِ بالمضارعِ المَنْفيِّ ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ﴾:

عبَّر النَّظْمُ الكريم بصيغة المضارع ﴿يَدَّبَّرُواْ﴾ وهو منفيٌّ بـ(لم)؛ فانقلب ماضيًا في المعنى؛ ليَنتبهوا إلى تقصيرهم في عدم تدبُّر القرآن، وليعلموا أنّهم بعدم حصول التّدبُّر استمرّوا على كفرهم وعنادهم، فالاستفهامُ بيانٌ لمنشأ غلطِهم، وكشفٌ لسرّ جحودِهم، ولو أنهم تدبّروه لوقفوا على دلائل صدقه، فهي فيه غير خافيةٍ لا من جهة ألفاظه وتراكيبه، ولا من جهة معانيه ودلالاته.

تذكيرُ المُعاندين بأنّ عدمَ إعراضِهم عن القرآنِ قد يُنقذُ قلوبًا ضائعةً

سرُّ استعمال مُفرَدَة ﴿ٱلْقَوْلَ﴾ دون (الآيات):

آثر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مُفرَدَة ﴿ٱلْقَوْلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾، فلم يَقُلْ: (أفلم يدّبّروا آياتي، أو يدّبّروها)، مع تقدُّم ذِكرِها في قوله سبحانه: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾؛ وذلك تنزُّلٌ معهم ومجاراةٌ لهم فيما زعموه وافتروه من تكذيب النبيّ ﷺ، وزعمهم أنَّه قولٌ كباقي الأقوال، مثلُ قوله تعالى: ﴿لَوْ

من أساليبِ الجدلِ القرآنيِّ التنزُّل مع الخصمِ ومجاراتُه لبلوغِ المطلوبِ

(1) ابن القيّم، مفتاح دار السّعادة: 1/ 525.

نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ [الأنفال: 31]، وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ [المدثر: 24 - 25]؛ ففيه تعريضٌ بوصفِهم القرآن بأنَّه مجرَّد قول، لا يعدو أن يكون شِعرًا أوْ حديثًا أوْ أساطيرَ الأوّلين، فكان المقصود من اختيار مُفرَدَة ﴿ٱلْقَوْلَ﴾ هو دعوتهم للتّفكُّر: هل هذا قولٌ كباقي الأقوال؟.

معنى التّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلْقَوْلَ﴾:

(أل) في لفظ ﴿ٱلْقَوْلَ﴾ للعهد، والمعهود هو القرآن الكريم والآياتُ البيّنات، فهو الحاضر في الذّهن وفي الذِّكر؛ أيْ: في قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، وبذلك العهد ندركُ أنَّ آيات اللّه الّتي تُتلى عليهم من جنس القول والكلام، والكلامُ بطبيعتِه لا يُفهم إلّا بعدَ تدبرُّه والنّفاذ إلى أعماقه والوقوف على مقاصده؛ لأنّه كلامٌ محبوكٌ ومسبوكٌ ومُنسجمٌ وذو مقاصدَ عميقةٍ، فيستدعي التّدبُّر وحُسنَ النّظر لإدراك الغايات.

عهديّةُ القولِ توجِبُ التأمُّلَ في الآياتِ لأنّها من جنسِ الكلامِ

نوعُ ﴿أَمْ﴾ ودلالتُها:

﴿أَمْ﴾ منقطعةٌ بمعنى (بل)؛ أيْ: هي للإضراب الانتقاليِّ، والانتقالُ بوساطتها هو انتقال من التّوبيخ بما ذُكر - وهو عدمُ تدبُّر القرآن - إلى التّوبيخ بأمرٍ آخر، وهو عدم الاعتبارِ بأحوال أسلافهم، والهمزة لإنكار الوقوع لا لإنكار الواقع؛ أيْ: بل أجاءَهم من الكتاب ما لم يأتِ آباءهم الأوّلين حتّى استبدعوه واستبعدوه، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضّلال[1]، وتوالي الاستفهام الإنكاريِّ تلطُّفٌ بالقول معهم لبيان سرِّ ما وصلوا إليه من عنادٍ واستكبارٍ قاداهم إلى ذلك المصير السَّيئ الّذي لا ناصر لهم فيه ولا مُعين، أهو ناجمٌ عن عدم التّدبُّر أوْ نتجَ من كون الكتاب الّذي جاءهم كان بِدْعًا لم ينزل

الانتقالُ من توبيخٍ لآخر مناسبٌ للصّلدِ المُعانِد

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 143، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 12.

مثلُه على آبائِهم الأوَّلين؟ فالقرآنُ يُعدّدُ لهم أسبابَ الضَّلال بين تقصيرِهم في عدم حُسْنِ التَّفهُّم للآيات، أوْ في ظنِّهم المغلوط من كونه بدعةً لم يرَوا مثلها، ولم يسمعوا أخبارها عند آبائهم السّابقين نافيًا لكونه بدعةً وحدثًا غريبًا.

غرضُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي ﴿أَمْ جَآءَهُم﴾:

جاء التَّعبير بصيغة الماضي المُسنَد إلى ضمير المُشركين ﴿جَآءَهُم﴾ لزيادة الإنكار عليهم، على معنى: هل تأكَّد لديهم وتحقَّق أنَّ مجيءَ هذا الرُّسول إليهم مُرسلًا من ربِّه بهذا الدّين، أمرٌ غريبٌ لم يحدُث من قبل، وأنَّه لم يُبعث رسلٌ إلى آبائهم الأوَّلين، ولذلك اتَّخذوا هذا الموقف؟! والجواب: لا، لأنَّهم يعلمون علمًا أكيدًا بأنَّه قد سبقَ إرسالُ رسلٍ لآبائهم السّابقين وللأمم السّابقة، فلماذا يُنكرون أمرًا هم يعلمونَ أنَّه من سنَّة الأوَّلين؟ وكان اختيارُ مادّة (المجيء) مناسبًا لتحقيق ذلك الحدث، وأنّه قدومٌ مُؤكَّد ومقصودٌ.

الإنكارُ على المشركين في استغرابِهم أمرًا مشهورًا ذائعًا بين الأممِ

غرضُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ في ﴿جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ﴾:

﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ﴾ موصولةٌ مُبهمة، والمُراد بها الدّين والرّسالة والآيات والقول، والمعنى: أجاءَهم دينٌ وكلامٌ وقولٌ لم يأت آباءهم الأوَّلين، وهو الدّين الدّاعي إلى توحيد الإله وإثبات البعث، مع أنّهم كانوا يعرفون أخبار الأنبياء السّابقين من إبراهيمَ وإسماعيل وصالح وهود، وأنّهم يملكون أقوالاً جاءوا بها إلى أقوامهم، ثم إنَّه إنْ كان المُراد ظاهرَ معنى الصّلة، وهي ﴿مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من أنَّ الدّين والقول الّذي جاءهم لا عهدَ لهم به سابقًا، تعيَّن أن يكون في الكلام تهكُّمٌ بهم، إذ قد أنكروا دينًا جاءَهم، ولم يسبق مجيئُه لآبائهم، ووجه التّهكُّم أنَّ شأنَ كلِّ رسول جاءَ بدينٍ أن يكون دينُه أُنُفًا، ولو كان للقوم دينٌ مثلُه كان مجيئه تحصيلَ حاصلٍ لا يفعله الحكيمُ، وإنْ كان المُراد من الصِّلة

التهكُّمُ بالمشركين، وإغلاظُ القول لهم فيما صدر عنهم ممّا يُخالف المعقول

أنّه مخالفٌ لما كان عليه آباؤهم من الاعتقاد؛ لأنّ ذلك من معنى: ﴿لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمۡ﴾ كان الكلام مجرّدَ تغليطٍ؛ أيْ: لا اتّجاه لكفرهم به؛ لأنه مخالفٌ لما كان عليه آباؤهم، إذ لا يكون الدّين إلّا مُخالفًا للضّلالة، ويكون في معنى قوله تعالى: ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ ۝٢١ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ۝٢٢﴾ [الزُّخرف: 21 - 22][1].

بلاغةُ النَّفي في ﴿لَمۡ يَأۡتِ﴾:

تكذيبُ ظنونهم الباطلة كشفٌ عن مآلاتهم الخاسرة

النَّفي بـ ﴿لَمۡ﴾ يُحيل معنى المضارع إلى الماضي؛ أيْ: هل استندوا إلى شيءٍ من ماضي أسلافهم يدلُّهم على أنَّ بعث الرُّسل بالرّسالات وإرسالَهم بالأقوال والآيات لم يكنْ من سنّة الأوّلين، فيركنوا إليه في إنكارهم رسالةَ محمد ﷺ ؟ مع أنَّ الواقعَ يُكذِّبهم والأدلّةَ تُفنِّدُ رأيَهم.

نكتةُ اجتماعِ لفظِ المجيءِ والإتيانِ:

المجيءُ لتشخيصِ ما يُعاصره المشركون من أحداثٍ، والإتيانُ لما وقع في الزّمنِ الماضي

من الفروق الدّلاليّة بين (جاء)، و(أتى) أن (جاء) يُقال في الجواهر والأعيان كما في قوله تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ۝٧٢﴾ [يوسف: 72]، و(أتى) يُقال في المعاني والأزمان، ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النّحل: 1][2]، وهنا قد استُعمل المجيءُ لتشخيص ما يُعاصرونه من أحداثٍ، بخلاف الإتيان فهو للحديث عن أمر وقع في الماضي، وعليه فالتّعبير بالإتيان في قوله تعالى: ﴿مَّا لَمۡ يَأۡتِ﴾ أنسبُ؛ لأنَّ المقصود الاحتجاجُ عليهم بما كان في الأزمان الماضية من إرسال الرُّسُل إلى آبائهم الأوّلين، كما أنَّ الفعل (جاء) يفيد تحقُّقَ المجيء بصعوبةٍ وشدَّة، بخلاف الفعل (أتى) الّذي يدلُّ على القدوم السّهل اللَّيِّن، فكيف يستصعبونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 88.
(2) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 2/ 365.

مجيئه رسولًا إليهم مع أنَّهم مُقِرّون بوجود أنبياء سابقين عليه، فناسبَ استعمالُ فعل الشدَّة مع استصعابهم وفعل السّهولة واللُّطف مع ما يُقرّونه ولا يُنكرونه، وهنالك سببٌ آخر يعود إلى استثقال المضارع من (جاء)؛ فلم يأت في القرآن أبدًا (يَجِئُ) ولذلك عُدل إلى ﴿يَأۡتِ﴾ لكونه أخفَّ في النُّطق[1].

توجيهُ تخصيصِ الآباءِ بالذِّكْرِ دونَ الأقوامِ والأسلافِ:

لَصاقة الانتساب بأصالة التعنّت

خصَّ النَّظم الكريم (الآباء) بالذِّكْر دون أن يقول: (ما لم يأت أقوامَهم أو أسلافَهم)؛ وذلك لأنَّ الآباء أصلُهم الذين يفتخرون بالانتساب إليهم، ويحتجّون بأفعالهم، ويفتخرون بتقليدهم، وهي عادةٌ فيهم وفي غيرهم ممَّن عاندوا الرُّسُل وعارضوهم، وأبَوا أن يؤمنوا بهم وبرسالاتهم، فجاءتِ الآية باللَّفظ الأنسب لمقام المخاطَبين المُتعلِّلين عند الإنكار بالتّمسُّك والاقتداء بآبائهم الضّالّين.

نكتةُ إضافةِ الآباءِ إلى الضَّميرِ:

التّعريضُ بالمشركين ومدحُ الآباءِ الأوّلين الذين كانوا على التّوحيد

أُضيف لفظ (الآباء) إلى الضَّمير العائد على المشركين حيث قال تعالى: ﴿ءَابَآءَهُمُ﴾؛ وذلك للتّخصيص؛ أيْ: (نحن إنّما نُحاكمكم إلى سُنّة آبائكم وعهدهم، فأبوكم إسماعيل كان نبيًّا، ونسلُه كانوا مؤمنين إلى أنْ أفسد بعض آبائكم الأقربين هذه المسيرة الإيمانيَّة بعبادة الأصنام، فإذا أردتم الآباء فعليكم الاقتداء بخيارهم وأصولهم المعتبرة)؛ ففيه تعريضٌ بهم، ومدحٌ لآبائهم الأوَّلين الذين كانوا على دين التّوحيد.

بلاغة الاحتراس في تخصيص الآباء بوصف ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

الآباء الأوّلون كانوا على التّوحيدِ وطاعة الرّحمن

آثر النّظْم الكريم ذِكْر ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ دون (السّابقين) ونحو ذلك؛ لأنَّ المُراد بالآباء الأوّلين أجدادُهم الأبعدون؛ كإسماعيل ﷺ وأعقابه

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 3/ 14.

من: (عدنان وقحطان ومضر وربيعة وقيس) فآمنوا به تعالى وبكتبه ورسله وأطاعوه[1] ولم يحدث التّبديل إلى عبادة الأصنام إلّا عندما دسَّها عليهم (عمرو بن لُحَيّ)، فالتَّوحيد وعبادة الله تعالى هي طريقة آبائهم الأوَّلين، فإنْ صدقوا الانتساب فعليهم صدقُ العمل والاقتداء بهم، وعلى هذا فالتّقييد بوصف ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ احترازٌ، دفعًا لتوهُّم أنَّهم الآباء الأقربون منهم، فإنّه لم يُبعث فيهم رسولٌ قبله ﷺ، كما أنَّهم لم يكونوا مؤمنين؛ بل كانوا على عبادة الأوثان، إلّا قلَّةً معروفةً منهم تنكَّرت لها فأبَت السُّجود لها، وكان على دربهم (قسّ بن ساعدة)، وأيضًا (زيد بن عمرو بن نفيل) الّذي تحنَّف، و(ورقة بن نوفل) الّذي تنصَّر، وغيرهم.

نوع ﴿أَمْ﴾ ودلالتها:

﴿أَمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ﴾ للإضراب الانتقاليِّ من توبيخهم على إنكار الرّسالة إلى توبيخهم على إنكار الرّسول ﷺ، فلماذا يتنكَّرون له ويُنكرون نبوَّته وهو الّذي لم يَكذِبْهم أبدًا، ولم تتغيَّر مطلقًا سجيَّتُه المطبوعة على مكارم الأخلاق، فإذا ما أخبرهم بأنّه رسولٌ من الله قد بعثه إليهم ليدلَّهم على الدّين الحقّ، كذَّبوه وكأنّه شخصٌ آخر غيرَ الّذي كانوا ينعتونه بالصّادق الأمين؟ وتوجيه الإضراب كالتّالي: (بل ألم يعرفوا مُحمّدًا ﷺ مُتصفًا بالأمانة والصِّدق ومُنزَّها عن الأغراض والطَّمع فيما يُطمَع فيه من زعامةٍ أوْ مالٍ أوْ مصاهرةٍ وغير ذلك ممّا تتغيَّر نفوسُ النّاس لأجله؟) والاستفهام الكائن في همزة ﴿أَمْ﴾ هو كسابقِه لإنكارِ الوقوع[2].

الانتقالُ من توبيخهم على إنكارِ الآياتِ إلى التّوبيخ على إنكارِ الرّسولِ نفسه

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدَةِ المعرفةِ:

إيثار التَّعبير بالمعرفة دون العلم في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ

قليلٌ نظرٍ يَعلمُ صفاتِ خيرِ البَشَرِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 143.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 251.

رَسُولَهُمْ﴾؛ لأنَّ المعرفة هي درجةٌ دونَ العلم، فلمّا كان المقام مقامَ إنكار صفاته ﷺ الحميدة، وفي سياق النَّفي، ناسب ذِكْرُ المعرفة للتَّنبيه على أنَّه ﷺ يُعرف بصفاته وآثاره وسلوكياته وأقواله العظيمة، فأمره لا يحتاجُ إلى علمٍ دقيق؛ بل إلى معرفةٍ يسيرةٍ، كما أنَّ المعرفة هي النَّظرُ في الجزئيات والأحوال الخاصَّة للمعلوم بخلاف (العلْم) الّذي يكون مُختصًّا بالأمور العامَّة والكُلّيَّة، وهؤلاء المخاطبون ممّن خالطوا النّبيّ ﷺ قبل بعثته، وتعرّفوا على أخصِّ خصوصياته، فهم أدركوا جميعَ صفاته وأحواله من الخلالِ الحسنة والصِّفات الحميدة؛ فناسب ذِكْرُ المعرفة طبيعةَ العلاقة به ﷺ.

نكتة ذِكْرِ الرِّسالةِ دون النّبوَّةِ:

وظيفةُ التّبليغ والإنذار بالآياتِ ألصقُ بالرِّسالةِ منها بالنُّبوَّةِ

آثر النَّظم الكريم استعمالَ نعت الرِّسالة دون النُّبوّة في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ﴾، وذلك أنَّ السّياق هو سياق تبليغٍ بالآيات وتدبُّرٍ للأقوال، والتّبليغ هو في وظيفة الرّسول أوضحُ منه في وظيفة النّبيِّ، والإنكار إنّما كان بسبب ما احتوته الرّسالة من أوامرَ ونواهٍ وإرشاداتٍ رفضوا الانصياع وراءها.

دلالةُ إضافةِ لفظِ الرّسولِ إلى الضَّمير:

السَّعيدُ مَنْ خُصَّ بمحمدٍ سيِّدًا ورسولًا

أُضيف لفظُ الرّسول إلى ضمير المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿رَسُولَهُمْ﴾، وهي إضافة تخصيصٍ، لكونه منهم وهم قومه، وهو من أنسبهم وأشرفهم؛ فهو حريصٌ عليهم، ولن يأتي الدّنيَّة ولن يَدعوَهم إليها، فلا بدَّ أنه دعاهم إلى أمرٍ شريف يناسبُه ويناسب ما يُعرفون به من صفات وأخلاقٍ كريمة، فدلّت الإضافةُ على توبيخهم من كلِّ وجهٍ، لكونهم يعرفونه حقَّ المعرفة ذاتًا ووصفًا، ومع ذلك كذَّبوه ولم يؤمنوا به، وكان من حقِّه عليهم أنْ يَشكروه لا أنْ يُنكروه.

نوعُ الفاءِ ومعناها:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ للتّرتيب، ولتأكيد

الدّاخلة عليه لما قبله؛ "فجحودُهم به مُترتّبٌ على عدمِ معرفتهم بشأنه ﷺ، ومن ضرورة انتفاء المَبنيِّ بطلانُ ما بُني عليه؛ أيْ: فهم غير عارفين له ﷺ فهو تأكيدٌ لما قبله"[1]، وقيل: هي فاء السّببيّة؛ "لتسبُّب الإنكار عن عدم المعرفة؛ فهو داخلٌ في حيِّز الإنكار، ومآل المعنى: هم عرفوه بما ذُكِر فكيف يُنكرونه؟!"[2]، وهذا الحِجاجُ بتوالي الاستفهام والإنكار وقوفٌ على سرِّ جهلهم؛ إذ جميع الدّعاوى الّتي كانوا يتعلّلون بها للتّكذيب مُفنّدةٌ وباطلة، لأنّها إنكارٌ للحِسّيّات وجَحْدٌ للضَّروريّات.

أفـادتِ الـفـاءُ الـتّرتـيـبَ أوِ السَّببيَّةَ

بلاغة جملة ﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ دالٌّ على مدى الجحود الّذي توفَّر في المشركين، إذ جحدوا ما يثقون ويوقنون أنَّه الحقُّ، وقد اكتست هذه الجملة بنكاتٍ بيانيَّةٍ من مثل كونها أُكِّدت باسميّة الجملة المكونة من المُسنَد إليه ﴿فَهُمْ﴾، والمُسنَد ﴿مُنكِرُونَ﴾، وتقديم الجارِّ والمجرور على الخبر ﴿مُنكِرُونَ﴾ حتّى لكأنَّهم يعرفون كلَّ شيءٍ إلّا رسولَهم فيَجهلونه ويجهلون عنه كلَّ شيءٍ، ومجيءُ الخبر بصيغة اسم الفاعل ﴿مُنكِرُونَ﴾ الدّالّ على ثباتهم واستمرارهم في هذا الإنكار وهو قمّة الجحود.

لـــم تـعـرف البشريَّةُ جحودًا كجحود قريش مُحمَّدًا ﷺ

نكتةُ استعمالِ مُفرَدَةِ ﴿مُنكِرُونَ﴾:

آثرَ النَّظْم الكريم استعمال مُفرَدَة ﴿مُنكِرُونَ﴾ دون رديفاتها، وذلك أنَّ الإنكار ضدُّ المعرفة، فإذا كانوا يعرفونه ﷺ حقَّ المعرفة، إذ عرفوا تفاصيل حياته منذ نشأته حتّى ساعة بعثته، وهم على تمام المعرفة بأخلاقه وسجاياه، ومع ذلك ادَّعوا خلافه؛ فإنَّ الإنكار الّذي هو مقابلٌ لها يدلُّ على كمال الجحود، بحيث لا يبلغ لفظ آخر

بـلاغـةُ المقابلةِ بين نفيِ المعرفةِ وإثباتِ الإنكارِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 143.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 339.

ما بلغَه من تصوير الجحود والنُّكران الّذي كانوا عليه، فحسُنت المقابلة بين نفي المعرفة ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ﴾ وإثبات النُّكران ﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾، إذ بلغت بهذيْن الأمريْن مبلغًا عاليًا من الجحود العجيب حتّى اجتمع الإثباتُ والنَّفي والمُؤدّى واحدٌ؛ لأنَّ عدم المعرفة بالشّخص لا تستلزمُ الإنكار له، لكنْ عندما يجتمعان يدلُّ على أنَّهم جحدوا معرفته أصلاً ولم يكتفوا بعدم المعرفة فقط.

نوع ﴿أَمْ﴾ ومعناها:

الإضـــــرابُ لـلانـتـقـالِ من تـوبـيـخٍ لآخـر، والاسـتـفـهـامُ لإنكارِ الواقعِ

﴿أَمْ﴾ كسابقاتها للإضرابِ الانتقاليّ، فقد انتقل بها إلى توبيخٍ جديد هو أشدُّ من كل ما سبقه؛ لأنّهم قد بلغوا قمةَ الافتراء في قولهم الّذي وُبِّخوا عليه، وهو قولُهم الآثم الّذي حكاه القرآن عنهم بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾، والهمزةُ هنا لإنكار الواقع واستقباحِه، فقد وقع منهم بالفعل اتّهامُه ﷺ بالجنون، وبأنَّ به مسًّا من الجنِّ، والمعنى: بل؛ أيقولونَ به جِنّةٌ؟ أيْ: جنون، وهو أرجحُ النّاس عقلًا، وأثقبهم ذهنًا، وأتقنهم رأيًا، وأوفرهم رزانة[1]، وفي هذا التّوالي بالاستفهام الإنكاريّ وتعدد الانتقالات التّوبيخيّة بيانٌ لسوء مصيرهم الّذي استحقّوه؛ إذ مارسوا جميعَ صورِ الإنكار والتّكذيب؛ إذ أعرضوا عن الآيات أوّلاً فلم يتدبّروها، وادّعوا أن رسولهم المُرسَل بالآيات بدعةٌ لم يسمعوا بها من قبل ثانيًا، وأنكروا معرفتهم بنبيهم إلى درجة الإنكار لأحواله وصفاته الكريمة ثالثًا حتّى ذهبوا إلى الافتراء عليه والادّعاء لجنونه، وأنّ ما يخبرهم به من القول ما هو إلّا مرضٌ عقليٌّ وخللٌ ذهنيٌّ وعاهةٌ قلبيّةٌ رابعًا، وكلُّ تلك الدّعاوى إنكارٌ للواقع المحسوس وردٌّ للقطعيّات ورفضٌ للبدهيّات الّتي يُقرّون خلافَها، لكن منعَهم الغرورُ والاستكبارُ عن رؤية الحقِّ والاعتراف به.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 144.

نكتةُ ذِكْرِ فعلِ القولِ بصيغةِ المضارعِ:

قد يكثرُ الباطلُ والمبُطلُ مفتونٌ

جاء التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَقُولُونَ﴾ مُثبَتًا بخلافِ الأفعال السّابقة المَنفيّة بما يُحيلها ماضيةَ المعنى استحضارًا للحالةِ الماضية؛ لتكون قبيحتُهم هذه ماثلةً أمامهم، وللدّلالة على أنَّ هذا القول كان يتكرّرُ منهم كثيرًا في أنديتهم ومجالسِ سَمَرهم؛ فقد لجأوا إلى هذه التّهمة الشّنيعة لمّا أُسقط في أيديهم ولم يقفوا على سببٍ حقيقيٍّ يَطعنونه به ﷺ، وفي ذلك تطوّرٌ في موقف صدودهم من الدَّعوة؛ فلم يكتفوا بالإنكار لخلاله الطيِّبة الأصيلة؛ بل أقدموا على الطَّعن والافتراء بما يُناقض الحسَّ والواقع.

معنى الباءِ، ونكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور:

الإلصاقُ والتّقديم تصويرٌ لكمال الجحود

(الباء) في قوله تعالى: ﴿بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ للإلصاق والمصاحبة، وقُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على المبتدأ ﴿جِنَّةٌ﴾؛ لإفادة الاختصاص؛ أيْ: به مسٌّ من الجنِّ، قد أحدث به جنونًا ليس له نظير، وكلٌّ من الإلصاق الحِسّيّ والتَّخصيص الشّخصيّ تصويرٌ لأعلى حالات الجحود والافتراء، وفي هذا التّسجيل لقولهم الآثم تعليلٌ لما تقدَّم من قوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾.

بلاغة اختيار مُفرَدَة ﴿جِنَّةٌ﴾ وتنكيرها:

الجمعُ بين تهمةِ الجنونِ وسببِها

اختيرت مُفرَدَة ﴿جِنَّةٌ﴾ تعبيرًا عن الجنون؛ لأنّهم كانوا يعتقدون أنَّ ما يُصيب المرءَ من خللٍ عقليٍّ هو بسبب مسِّ الجنِّ؛ فلفظ (الجِنَّة) يُطلقُ على الجنِّ، وهي المخلوقات المُستَترة عن أبصارنا[1]، ومن التَّعبير بالجِنَّة مُرادًا به الجنِّ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الصّافّات: 158] وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: 119]، فجمعت اللَّفظة بين الجنون وسببه، ونُكِّر لفظ ﴿جِنَّةٌ﴾ للتّفخيم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 89.

والتّهويل؛ أيّ: به ﷺ مسٌّ قويٌّ من الجنِّ أحدثَ به خللًا قويًّا في العقل، ولو نظرنا في كلِّ تلك الدّعاوى الّتي صدرت منهم رأيناها تصبُّ جامَّ غضبها على الآيات والقول المبين؛ فهم لم يتدبَّروها وادّعوا أنَّ الرَّسول في ذاته بدعةٌ لم تعرف سابقًا، وأنَّهم لم يعرفوه بالصّادق الأمين، وأنكروا ذلك وصولًا للتّكذيب بالآيات، وأنّه مجنونٌ وبها عصابٌ ذِهنيٌّ يجعلُه ينطق بهذا الكلمات الغريبة عن حياتهم وثقافتهم ووعيهم ومألوف حياتهم؛ إذ المجنون الّذي مسَّتْه الجنُّ ينطق بألفاظ خارجة عن مستوى الإدراك والفهم البشريّ المُعتاد.

نوعُ الإضرابِ بالأداة ﴿بَلْ﴾ ودلالتُه:

استعمال (بل) أقوى في إبطال الباطل ودحضه

الإضراب بـ ﴿بَلْ﴾ في قوله سبحانه: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ هو إضرابٌ إبطاليٌّ؛ لإبطال قولهم وبيان كذبهم في اتهامه ﷺ بأنّ به مسًّا من الجنّ، واستعمل هنا في الإضراب حرفَه الحقيقيّ وهو ﴿بَلْ﴾؛ لأنَّه يقصد إبطالَ أقوالهم السّابقة الّتي صبّت كلَّ إنكارها على الآيات البيّنات والرّسولِ المرسَل بها، وأمّا ﴿أَمْ﴾ فإنها استعملت بمعنى (بل) في الإضراب الانتقاليّ عند تعداد التُّهم وسردِها، كالذي مضى في المواضع السّابقة، لكن الرّدَّ المُزلزِل اختير له إضرابٌ إبطاليٌّ يُفيد قوّةً في التّفنيد ودعمًا للحقِّ والحقيقة.

بلاغةُ تكرارِ الإضرابِ:

كـثرةُ التَّوبيخ دليـلُ بـلادةِ الموبَّخ

تضمَّن الإضراب الانتقاليُّ في السّياق السّابق كلِّه أربعةَ توبيخاتٍ، وهذه التوبيخات الأربعةُ كان يكفي كلَّ واحدٍ منها ممّا وُبِّخوا به، أن يكون سببًا لانقيادهم إلى الحقِّ؛ لأنَّ التَّدبُّر لما جاء به، والنَّظرَ في سيَر الماضين، وإرسالَ الرُّسُل إليهم، ومعرفة الرَّسول ذاتًا وأوصافًا وبراءته من الجنون، هادٍ لمَن وفَّقه الله للهداية[1].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 574.

بلاغة التَّعبير بمُفرَدَة المجيء مادةً وصيغةً:

المـــادة تـعـيِّن الحصول وثقل المحمول معه، والصّيغة تُحقِّق الوقوع

جاء التَّعبير بمُفرَدَة المجيء ﴿جَآءَهُم﴾ لتعيُّن حصوله؛ فالمجيء إنّما يُقال باعتبار الحصول[1]، كما يفترق عن (أتاهم) بأنَّ المجيء انبعاثٌ فيه شدّةٌ وصعوبة وقوّة، تناسب حملَ الحقّ والحقيقة، ولذا عدّاه إلى ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، بخلاف الإتيان الدّالِّ على القدوم بلينٍ وسهولةٍ، وأوثر أن يكون بصيغة الماضي ﴿بَلۡ جَآءَهُم﴾ لزيادة الإنكار عليهم، على معنى: بل تأكَّد وتحقَّقَ لديهم أنَّ مجيءَ هذا الرّسول إليهم مُرسَلًا من ربِّه لم يكن إلّا بالحقِّ، وأنَّهم يعلمون ذلك لكنَّهم غلبتْ عليهم شِقوتُهم، فجحدوا نبوَّته، وخالفوا ما استيقَنَتْهُ أنفسُهم كما قال سبحانه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النّمل: 14].

تعيينُ مرجعِ الضَّمير:

الـــردُّ المـطـابـقُ للإنكارِ أبلغُ في مقامِ الحجاجِ

الضَّمير المُتّصل في قوله تعالى: ﴿جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ﴾ وقوله تعالى: ﴿جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ معنيٌّ به كفار مكّة؛ فهم الذين وُبِّخوا في الموضعيْن وأُنكر عليهم جحودهم وافتراءاتهم على القرآن وعلى النّبيّ مُحمّد ﷺ، وفي الجمع بين المجيئَيْن تناسبٌ واضح؛ إذ الأول وردَ على أنّه مجيءٌ مُنكرٌ؛ إذ اعتقدوا أنّ بعث الرُّسُل بدعةٌ لم يسمعوا بها؛ فناسبَ أنْ يكون الرّدُّ عليهم بأنّه مجيءُ حقٍّ وصدقٍ أمرٌ معتاد لا سبيل لإنكاره.

نوعُ الباءِ ومعناها في ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

اصـــطـحـــابُ الـرّسـولِ للحقِّ دليلُ الاستئثارِ به

(الباء) في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ للملابسة؛ أيْ: ﴿جَآءَهُم﴾ متلبّسًا ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ عقيدةً وشريعةً، ومُصاحبًا له، والحقُّ لا يغيب عنه في تفاصيل دعوته وأفعاله وأقواله، فكأنَّه اصطحبَ الحقَّ معه وأخذه بيده، ومن ثمَّ كان قدومُه ملغيًا لكلِّ صور الباطل، ومَن اصطحبَ الحقَّ وسار معه مُؤيّدٌ من الحقّ تعالى.

(1) الرّاغب، المُفردات: (جاء).

بلاغةُ اختيارِ مُفرَدَةِ (الحقّ) دون (الصّدق):

الحقُّ أعـمُّ من الصّدق لشموله الفعل والمعتقد والـقـول بخلاف الصّدق

جاء التَّعبير ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، والتّعريف في لفظ (الحقّ) للعهد، والمعهود رسالته ﷺ، المتضمّنة للقرآن الكريم، وما دعا إليه من عقائد وشرائع؛ لأنَّه أنسب في كونه أعمَّ، إذ يشملُ الأقوال والأفعال والمُعتقدات، أمّا الصّدق فيغلب أن يكون في الأخبار والأقوال والكلام، والحقّ هو الثّابت في الواقع ونفس الأمر، بحيث لا يزولُ ولا يحول ولا يدخلُه الباطل أبدًا؛ والتَّعبير به أعمُّ، فهو "يكون في الذّوات وأوصافها، وفي الأجناس، وفي المعاني، وفي الأخبار، فهو ضدُّ الكذب وضدُّ السِّحر وضدُّ الشِّعر، فما جاءهم به النّبيّ ﷺ من الأخبار والأوامر والنّواهي كلّه مُلابسٌ للحقّ"[1]، كما أنَّ الحقّ يُطلقُ ويُراد به مطابقةُ الواقع للخبر، بخلاف الصِّدق الّذي يُطلق عند مطابقة الخبرِ للواقع، فيكون الحقُّ أبلغَ من الصّدق وأعمقَ دلالةً منه، ولا ننسى أنَّ هذا ردٌّ على اتّهامه ﷺ بالجنون، بمعنى أنّ الكلام والآيات الّتي جاء بها هذيانٌ ولغوٌ باطلٌ، فكان الرَّدُّ المناسب أنْ يكونَ ما جاء به موصوفًا بلفظ الحقّ دون الصّدق؛ إذ هو المقابلُ للباطل الصّادر عندَ الجنون.

نوعُ الواو ومعناها في ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ﴾:

الـحـالُ مُـعـلّـلٌ ادعـــاءَهـــم وكاشفٌ كذِبَهم

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ﴾ هي واوُ الحال[2]، والجملة حاليَّةٌ في محلِّ نصبٍ؛ أيْ: والحال أنَّ أكثرَهم للحقِّ كارهون، وفائدةُ الحال بيانُ أنَّ تكذيبَهم ونسبتَهم صاحبَ الحقِّ ﷺ إلى الجنون معلّلٌ بكراهتهم للحقّ وعدم إذعانِهم للحقيقة، وهذا دليلُ غرورهم واستكبارهم.

علَّةُ التَّعبيرِ بالأكثريّة:

اختارَ النّظمُ الكريم صيغةَ الأكثريّة في قوله تعالى: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 90.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 527.

لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾، ولم يَقُلْ: (وهم للحقِّ كارهونَ) كما قال: ﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾، وظاهرُ النّظم يقتضي أنَّ أقلَّهم لم يكونوا يكرهونَ الحقّ، ولكنّهم لم يُظهروا الإيمان خوفًا من الكارهينَ له، أوْ عصبيّةً لما وجدوا عليه آباءهم، و"أنَفَة واستِنكافًا من توبيخ قومه، وأن يقولوا: صبأ وترك دينَ آبائه، لا كراهةً للحقِّ، كما يُحكى عن أبي طالب[1]؛ أيْ: إنّه لم يُؤمن به ﷺ خوفًا من هذه القولة، وقد نقلَ مقاتلٌ شعرًا عن أبي طالب فيه تصريحٌ بهذا السّبب، وهو قوله:

وَعَرضْتَ دينًا لاَ مَحالَةَ أنَّه *** مِنْ خَيْرِ أدْيانِ البريَّةِ دينا

لَولا المَلاَمَةُ أو حَذاري سُبَّة *** لَوَجَدْتَني سَمْحًا بذاكَ مُبيْنا[2]

يا بؤسَ مَن باعَ الحقَّ بثمنٍ بخسٍ، ورضي بالباطلِ بمكرٍ ورِجْسِ

نوعُ (اللّام) ومعناها:

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿لِلْحَقِّ﴾ لامُ التّقوية كالّتي مرّت في قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ ويحتملُ أنْ تكون لامَ الأجْل؛ أيْ: كارهونه لكونه حقًّا، وعلى كلٍّ من المَعنيَيْن دلّت (اللّام) على عُمق كراهيتهم للحقّ، وأنّ إنكارَهم لصوتِ الحقيقة والآيات البيّنات لم يكن مبنيًّا على رُشدٍ ورأيٍ معقولٍ؛ بل لمجرَّد الهوى والغُرور والاستكبار.

التّقويةُ والتّعليلُ كاشفان عن الغرورِ والاستكبارِ في نفوسِ الكافرين

بلاغةُ الجِناسِ أو التّعطُّف بتكرار لفظٍ بمعنيَيْن:

التّعريف في لفظ ﴿لِلْحَقِّ﴾ لاستغراق الجنس، والمُراد الحقُّ من حيث هو حقّ أيَّ حقٍّ كان، لا لهذا الحقِّ المذكور أوّلًا فقط؛ كما يُنبئ عنه الإظهارُ في موقع الإضمار[3]، وقيل: أظهرهَ في محلِّ الإضمار لكونه أظهرَ في الذمِّ، وأبعدَ لتوهُّم أن يكون الضَّمير عائدًا للرَّسول ﷺ[4]، وهذا مبنيّ على تفسير أنَّ الحقَّ الثّاني مُغايرٌ للأول؛ فالأوّل

الحقُّ الأوّل هو الآيات فهو المعهود، والثّاني هو جنس الحقّ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 195.

(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/ 19، ومقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان، ص: 556.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 144، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 339.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 252.

مُرادٌ به المعهود من الآيات والقول الحق والقرآن، والثّاني مُرادٌ به جنس الحقِّ المقابل لمُطلَق الباطل، ومَن يرى أنَّ الحقَّ الأوّل هو نفسُه الحقُّ الثّاني، على قاعدة أنَّ المعرفة عندما تتكرَّر يكونُ الثّاني هو الأوّل، يكون إظهار الحقّ في موضع الإضمار، ونكتتُه كمال التّقرُّر، أوْ للتّعظيم وإظهار شرفه[1]؛ أيْ: شرف الحقّ، ويترجّحُ الأوّل وهو مغايرةُ الحقِّ الأوَّل للحقِّ الثّاني؛ إذ الأوّل خاصٌّ بالقرآن والآيات، والثّاني عامٌّ ينطلقُ من كراهيتهم لكلِّ حقٍّ، ولا ننسى أنَّ جملة الحال ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ بيّنت موقفهم وعلَّلت اتهامَهم لكلامِه بالبُطلان لكونه صادرًا ممّن به جِنّة، فيكون ذلك التكذيب قائمًا على أمرٍ مُتقرِّر في نفوسهم، وهي كراهيَتُهم للحقِّ وجنسه الّذي لا يتّفقُ مع أهوائهم وأباطيلهم.

نكتة تقديم ﴿لِلۡحَقِّ﴾ على المُسنَد:

قُدِّم ذِكر الجارِّ والمجرور ﴿لِلۡحَقِّ﴾ المُتعلِّق بالمُسنَد وهو ﴿كَٰرِهُونَ﴾ اهتمامًا بذِكْره، "حتى يستوعبَ السّامعُ ما بعده، فيقع من نفسِه حُسْنُ سَماعه موقعَ العجَب من كارهيه"[2]؛ لأنّ الحقّ غالبًا لا يتّفق مع رغبات الإنسان وتطلُّعاته، فيكون مكروهًا كراهةً قويّةً استدعَتْ إبرازه وإظهارَه بتقديمه على عامله وكأنّه مدار الكلام ومركزُه، ولمراعاة الفواصل.

الاهتمامُ بمركزِ القضيةِ يستدعي التّقديمَ

بلاغةُ اختيارِ مُفرَدَةِ الكُرْه باسمِ الفاعلِ:

في اختيارِ مُفرَدَة (الكُرْه) في قوله تعالى: ﴿كَٰرِهُونَ﴾ دون سواها، إعلامٌ بتحكُّم طبعهم في هذا الكُره، فهم مطبوعون على كُره الحقِّ وبغضِه؛ لأنَّ الحقَّ كما أنَّه يُصادم طباعَهم الجامحةَ للرّغبات غير الصَّحيحة، فإنَّه كذلك يُصادم مصالحَهم وأهواءهم، فرفضُهم

العلَّةُ الحقيقيَّةُ لرفضِ الآياتِ الكرهُ للحقِّ لا بسببِ القناعةِ ببطلانِها عقلًا

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 203.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 91.

للآيات الحقِّ لا لأنَّهم غير مقتنعين بها، أو غير بائنةٍ لهم حقيقتها؛ بل لأنَّهم يكرهون الحقَّ المُخالف لأهوائهم وغرورهم واستكبارهم، وجاء التَّعبير باسم الفاعل ﴿كَٰرِهُونَ﴾ للإشعار بأنَّ كراهيتَهم للحقِّ سجيَّةٌ فيهم، وطبعٌ نابعٌ عن انحرافهم الدّائم عن جادَّة الصّواب، ولذا فهم دائمون عليها على سبيل الحدوثِ والاستمرار.

بلاغةُ الفواصلِ بين لفظي ﴿مُنكِرُونَ﴾ و﴿كَٰرِهُونَ﴾:

في قوله: ﴿مُنكِرُونَ﴾ و﴿كَٰرِهُونَ﴾ من فاصلتي قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٦٩ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّ سيِّئ الأخلاق طبعٌ فيهم وسجيَّة، فهم ما أنكروه ﷺ وأنكروا رسالته وكتابَه، ولا أنهم كرهوا ما جاءَ به من الآيات البيِّنات، إلّا لكونهم مطبوعين على هذا الإنكار، وذاك الكُره للحقِّ وأهله، فهم جمعوا بين خُلُقَيْن ذميمَيْن، هما: الإنكار والكراهية؛ أحدُهما في الرّسول الّذي بهتوه حقيقتَه حتَّى إنَّهم أنكروه ولم يعرّفوه بصفاته الخيرة، وثانيهما في الرّسالة والمبادئ والقيم الإنسانيّة الفاضلةِ الّتي جحدوها حقَّها لكراهيتهم الحقّ الّذي لا يتّفق مع نزواتهم وشرورهم، وهذا من بليغ التَّشنيع عليهم، وبيان أنَّهم قومٌ بُهْتٌ.

اجتمعَ في أهلِ الباطلِ إنكارُ الرّسولِ وكراهيةُ الحقِّ، وليس بعد ذلك ذنبٌ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القول والكلام:

القول هو كلُّ ما يلفظُ به قليلًا كان أوْ كثيرًا، مُفيدًا كانَ أوْ غيرَ مُفيدٍ، فهو يشملُ كلَّ ما يُنطَق به ويُلفَظ، وهو أعمُّ من الكلام؛ لأنَّ الكلام يُطلقُ على المُفيد الّذي يتمُّ به معنى، و"تركيب القَوْل يدلُّ على الخِفَّة والسُّهولة في جَميع تقاليبه، فوَجَبَ أن يتَناوَل الكَلِمَة الواحِدَة، والتّأثيرُ الّذي أفادَهُ تركيب الكَلام لا يحصل إلّا من الجُمْلَة التّامَّة"[1].

القولُ أعمُّ من الكلامِ، فكلُّ كلامٍ قولٌ، وليس كلُّ قولٍ كلامًا

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 710.

المعرفة والعلم:

العلمُ أعمُّ من المعرفةِ، فكلُّ معرفةٍ علمٌ، وليس كلُّ علمٍ معرفةً

المعرفة والعرفان: إدراك الشّيء بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ لأثره، وهو أخصُّ من العلْم، ويضادُّه الإنكار، ويُقال: فلان يعرفُ الله، ولا يُقال: يعلمُ الله، مُتعدّيًا إلى مفعولٍ واحدٍ، لما كان معرفةُ البشر لله هي بتدبُّر آثاره دون إدراك ذاته، ويُقال: الله يعلم كذا، ولا يُقال: يعرفُ كذا، لما كانت المعرفةُ تستعمل في العلم القاصر المتوصَّل به بتفكُّر واكتساب، وأصله مِن: عَرَفت؛ أيْ: أصبتُ عُرفه[1]؛ فالمعرفة أخصُّ من العلْم؛ لأنَّها علمٌ بعين الشّيء مُفصَّلًا عمّا سواه، والعلمُ يكون مُجملًا ومُفصَّلًا[2].

(1) الرّاغب، المُفردات: (عرف).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 80.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والثلاثون،
سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 36 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 36 : المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-78-5
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8956803 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»